

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

واقع الحركة العمالية في الجزائر بين 1900-1936 – الفلاح الجزائري نموذجا-
The reality of labor movement in Algeria 1900-1936 –Algerian peasant
-model

Abdelhafid Iguenane عبد الحفيظ إقنان
university of mohamed lamin dabaghin جامعة محمد الأمين دباغين- سطيف
iguenane.abdelhafid@yahoo.com

تاريخ القبول : 2019-12-07

تاريخ الاستلام : 2019-09-07

ملخص:

أتطرق بالدراسة في هذا المقال إلى فئة جد هامة من المجتمع الجزائري وهم الفلاحون، هذه الفئة المهمشة في الدراسات الأكاديمية، وهي تشكل أغلبية المجتمع الجزائري خلال عشرينيات القرن العشرين، فقد عرف الفلاح الجزائري أوضاع جد صعبة ومعقدة منذ دخول الاستعمار الفرنسي إلى أرض الجزائر، هذا الصعوبة التي تظهر للعيان خلال فترات الجفاف والمسغبة أو الأزمات الاقتصادية.

وهذا راجع إلى سياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر التي حطمت الفلاح وفصلته عن مصدره الحيوي ومصدر رزقه، وتم ذلك من خلال اصدار مجموعة من القوانين الخاصة بالعقار، كما تم ابعاد الفلاح عن الغابات ومنع من التنقل من منطقة إلى أخرى، إذن كل هذه السياسة ساهمت في تعميق الفقر وانتشار الأمراض والجهل والامية في أوساط المجتمع الجزائري.

كلمات مفتاحية: الفلاح الجزائري، الجزائر، الأرض، الاستعمار، الحركة العمالية.

Abstract :

In this article, I refer to a very important category of Algerian society: the peasantry, this marginalized group in academic studies, which constitutes the majority of Algerian society during the twentieth century. The Algerian farmer has known very difficult and complex conditions since the French colonization of Algeria, Visible during periods of drought and despondency or economic crises.

This is due to the policy of French colonialism in Algeria, which destroyed the peasant and separated him from its vital source and source of livelihood. Which destroyed the peasant and separated him from its vital source and source of livelihood. This was done through the issuance of a series of laws on the real estate.

The farmer was removed from the forests and prevented from moving from one region to another, Poverty and the spread of diseases, illiteracy and illiteracy among the Algerian community .

Keywords: Algerian peasant; Algeria; land, French colonization; labor movement.

1. مقدمة:
يعتبر المجتمع الجزائري مجتمعا زراعيا وفلاحيا منذ القدم، فهو حافظ على أهم نشاط اقتصادي قائم في ضفتي البحر الأبيض المتوسط من الشمالية والجنوبية، ونجد تبادل

تحديد الملكيات وهذا راجع إلى الاضطراب التي تعرفه أقطاب الدولة الجزائرية من الحفصيين أو المرينيين إلى الدولة العثمانية.

-الاستغلال المشترك للماء، سواء مياه فالأبار أو السواقي هذه الأخيرة التي تعود ملكيتها إلى قبيلة أو قرية أو عرش لا يمكن للفرد أن ينفرد باستغلالها، بل لا يستطيع الحفاظ عليها، كما أنها ملكية جماعية.

-تعذر ممارسة الزراعة فرديا، فهي منذ القدم ممارسة أسرية أو عشائرية بسبب طبيعة العمل التي تلزم وجود يد عاملة كبيرة خاصة في مواسم الحصاد والبذر، ومع غياب الآلة اليد العاملة البشرية لا مفر منها.

فكانت الزراعة في المناطق الداخلية التي تشح فيها الأمطار تعتمد على الزراعة الغير مسقية "البعلية" كما استثمر الجزائريون في حفر الآبار ومد سواء للسقي أو الزراعة، كما أثر الأندلسيون في الزراعة الجزائرية تأثيرا مهما جدا، فعملوا على تطوير تقنيات الري والسقي، كما عملوا على إحياء المساحات الزراعية الغير مستغلة وفق طرق جد متطورة بالنسبة إلى تلك الفترة، ومن المنتوجات التي أدخلها الأندلسيون إلى نذكر: الفلفل، البطاطس، الباذنجان، الزعفران، الكريث، الكرات والجلبان، كما ساهموا في تطوير شعبة الزيتون من خلال ادخال طرق جديدة في التطعيم إلى الجزائر العثمانية، لكن هذه الهبة سرعان ما تراجعت بسبب تقلبات المناخ وفترات الجفاف التي عرفتها الجزائر خلال القرن السابع عشر، هذه الأخيرة التي تؤدي إلى المجاعات والأمراض¹.

ومع كل التحولات العميقة التي عرفها المجتمع الجزائري إلا أنه بقي وفق نسق اجتماعي ريفي، رغم السياسة الفرنسية المطبقة عليه خلال القرن التاسع عشر، وهذا ما نجده عند مطلع القرن العشرين أين استمر المجتمع الجزائري يتكون من فئتين هما الحضر والتي لا تشكل سوى 6.62% من مجموع الجزائريين، وكانت النسبة الكبيرة تتمثل في سكان الريف والذين يمارسون النشاط الفلاحي، وتنقسم هذه الأخرى بدورها إلى المستقرون في مناطق معلومة ويمارسون الزراعة والفئة الأخرى وهم البدو والرحل والذين يمارسون النشاط الرعوي (تربية

الخبرات والأفكار في هذا المجال الفلاحي بين الشعوب، سواء في مسائل الغرس أو تطوير طرق تربية المواشي وتدجينها، لكن الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط كانت محورا فعالا في صناعة التاريخ على مستوى العالم القديم والجديد باعتبارهم يملكون روح المبادرة وبسبب العوامل الصعبة التي تعيشها الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط وفق نظرية التحدي والاستجابة "لأرلوند تويني"، فتمكنت هذه الأخيرة من فرض سيطرتها وعنجهيتها على الضفة الجنوبية عبر فترات زمنية مختلفة لكل فترة عوامل وأسباب مختلفة.

لكن محور هذه الحركية الإنسانية والاستعمار القهري تأثير مباشر على النشاط الفلاحي وممارسات الزراعة في الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط سواء في الفترة الرومانية أو البيزنطية أو الإسلامية والعثمانية حتى الاستعمار الفرنسي للجزائر هذا الأخير الذي حاول فرض سياسة فلاحية من نوع خاص دون مراعاة الجانب المحلي الذي تأثر سلبا من هذه السياسة فمن خلال هذا المقال نطرح تساؤل عن الوضع العام للفلاح الجزائري بين ما هو ثابت تاريخيا والمتغير الاستعماري، هذا الأخير الذي كان مع فئة الكولون أو الأقدام السوداء دون غيرهم؟ وكيف تحول هذا المستثمر الجزائري من فلاح إلى خماس لدى الكولون؟

2. جذور النشاط الفلاحي في الجزائر

وكانت الفلاحة ذات أهمية بالغة في تاريخ الجزائر الحديث فلم تكن نشاط اقتصادي واجتماعي يؤمن حاجيات السكان من الضروريات التي تنتج في المنطقة ولم يقتصر هذا النشاط على الاستعمار الفرنسي للجزائر، بل هي ممارسة أصلية قديمة قدم الوجود الإنساني في المنطقة، طورت محليا وفق نسق اجتماعي وجغرافي يتوافق مع ذهنيات المجتمع المحلية، هذه التي تمارس جماعة سواء كقبيلة أو عشيرة أو قرية وذلك راجع إلى تداخل مجموعة من الأمور في ممارسة الفلاحة، منها الأرض أو العقار هذا الأخير الذي تغلب عليه الملكية الجماعية ولم تكن هذه الاشتراكية الأولى في المجتمع خيارا بل كانت حتمية لأسباب وهي:

-عدم القدرة على التحكم في العقار فرديا بسبب الصراع القبلي على الأرض، فمن المستحيل أن يتمكن الفرد على أرضه، في ظل الغياب الدائم للدولة المركزية عن تسيير أمور السكان وصعوبة

-على كل دوار من الدواوير الموجودة في المناطق الغابية بالقطر الجزائري يجعل فيه حراسة خاصة بمراقبة النار من أول جويلية إلى نوفمبر ويكلف بها سكان الدوار.

- عند اشتعال النار ينبغي الإخبار عنها لدى أقرب قائد وثانيا معرفة الذي أشعلها والقبض عليه وتسليمه إلى الحاكم.

-يقوم حراس بالحراسة نهارا وليلا ماشيا أو راكبا على حصان أو فرس.

-كل مخالفة للمواد السابقة الذكر من هذا القانون أو الأحكام والأوامر الصادرة في كيفية تنفيذها يعاقب مرتكبها بخطية تتراوح بين 20 و500 فرنك وقد يعاقب زيادة على الخطية بمدد ستة أشهر سجن نافذ وقد تمتد العقوبة إلى مصادرة أملاكه.

واستفادت الشركات الرأسمالية الكولونيالية من حق استغلال الغابات في المقابل تقدم الإدارة الاستعمارية ضمانات وتعويضات عند حدوث الحرائق وهذه التعويضات تؤخذ من الغرامات والضرائب المفروضة على الفلاح الجزائري، وهذا الأخير يقتصر دوره على حراسة الغابة والقيام بأعمال السخرة⁶.

ب-الغاء الملكية الجماعية للأرض: إن سياسة الإدارة الاستعمارية في تفكيك الملكية الجماعية وإقرار الملكية الفردية محلها في الجزائر لهو أمر جد معقد بالنسبة للفلاح الجزائري، هذا الأخير الذي لا يستطيع تقسيم أجزاء كبيرة من هذا العقار المشترك بسبب تحوله إلى قطع صغيرة لا تصلح للزراعة المحلية خاصة زراعة القمح والشعير، كما أنها فرصة مناسبة للإدارة كي تجبر الفلاح على التخلي عن هذه الأرض وإلا سوف يدفع جملة من الضرائب والرسوم التي تفوت قيمة الأرض أحيانا⁷.

-عدم قدرة الفلاح الجزائري السير وراء نسق الرأسمالية الاستعمارية فالفلاح الأوروبي "الأقدام السوداء" يملكون وسائل حديثة ويتحكمون في طرق متطورة سواء في الزراعة أو الحصاد أو السقي أما الفلاح الجزائري فما زال في ممارسات زراعية قديمة لا يمكن ان تنافس في السوق الأوروبيين⁸.

ومن بين الأسباب التي دفعت الفلاح الجزائري لبيع أرضه نذكر مجموعة من النقاط التي يكون قاسمها المشترك السياسة الاستعمارية الهادفة إلى تدمير أهلي الجزائري وهي:

الأغنام، الماعز، الإبل). ويتنقلون حسب توفر المراعي ونسب التساقط.²

3. سياسة الاستعمار الفرنسي وأثرها على الفلاح الجزائري:

سعى الاستعمار الفرنسي إلى حصر الفلاحي الجزائري في جميع مناحي الحياة الاقتصادية بل وحتى الحريات العامة التي هي مكفولة في جميع المستعمرات من خلال إصدار جملة من القوانين والممارسات الغير مقننة والتي تهدف إلى القضاء على هذه الطبقة بسبب مقاومتها للاستعمار إن لم نقل هي واجهة الجزائر، وهي التي تمثل الأرض الجزائرية ومن هذه الممارسات نذكرها على شكل نقاط:

أ.عزل الفلاح عن الغابات: تعد الغابة المصدر الأساسي والفضاء الهام الذي يمارس الفلاح الجزائري جل نشاطه من خلال الرعي وجلب الخشب للتدفئة وإلى غير ذلك من الأغراض التي توفرها الغابة، لكن عملت الإدارة الاستعمارية على عزل الفلاح عن الغابة من خلال جملة من الإجراءات أهمها.....، وفي المقابل فرضت عليهم خدمة إلزامية في فائدة الغابة هذه الأخيرة التي منعوها من خيراتها، ومن أهم ما جاء في هذه الإلزامية نذكر:

تغريم القبيلة أو العرش أو القرية في حال حدوث حريق في الغابة ويمكن أن تصل هذه العقوبة إلى مصادرة الأرض بحجة التهاون وعدم القيام بالواجب³، فتعرض الفلاحون الجزائريون خلال حرائق الغابات سنة 1881 إلى الإبعاد ب 30 كلم عن الغابات وتم انشاء مراكز للمراقبة (أبراج المراقبة) تحيط بالغابات جميعا⁴.

كما تم إجبار الجزائريين على القيام بأعمال السخرة لصالح الغابات التي لا يملكون منها إلا "الهواء" حسب قانون 21 فيفري 1903، أين أجبر الأهلي على فتح المسالك وقاية من النار، والزامية القيام بدوريات في الليل لحراسة غابات الفلين، ومن أهم ما جاء في هذا القانون المنحاز ضد الفلاح الجزائري⁵:

-منع الفلاح الجزائري القريب من الغابة بـ500 إلى 1000 متر من اشعال النار إلا لأغراض الطهي.

ملاحقهم بمختلف أنواع الضرائب على غرار ضريبة "اللزامة" أو "اللزامة"، فقد فرضت هذه الأخيرة على المناطق الجبلية والواحات باعتبار أن هذه المناطق لا تنتجحبوا، هذه الضريبة مع باقة أخرى من الضرائب والغرامات التي ألح عليها المستوطنين كي يدفعها الفلاح الجزائري¹³.

وعند عجز الفلاح الجزائري عن دفع الضريبة يأتي المحصل إلى المنزل لحجز كل ما لديه من الأشياء ذات القيمة ثم يسوقه هو وزوجته إلى المركز الإداري لبيع هذه الأشياء في السوق، فإذا ما غطى ثمنها ما عليه من الغرامة فإنه سيطلق سراحه مع زوجته وإلا تحجز زوجته كرهينة إلى أن يستوفي ما عليه من الغرامة، وهذا ما شجع المرابين اليهود على الانتشار واستغلال عوز الفلاح الجزائري لأجل تقديم قروض ربوية¹⁴، وهي ما يزيد من افقار الجزائريين وجعلهم دون يتخبطون في المحاكم من أجل ارجاع الدين إلى المرابين اليهودي، أو يبيع أرضه بأبخس الأثمان قصد ارجاع الدين، فتمكن اليهود في فترة قصيرة من كسب ثروة طائلة على حساب الطبقات الكادحة من المجتمع.

ج-المضاربة في أسعار الحبوب: فبعد أن كان الفلاح الجزائري يعتمد على امكانياته الخاصة في العيش وتدبر الأمور المختلفة الخاصة بحياته اليومية، التي تعتمد على حفظ المنتوج من القمح والشعير ومختلف الحبوب في ما يعرف بالمطامير تخلى عنها بسبب الحاجة إلى المال واستبدال الاستعمار طرق دفع الضرائب من العين¹⁵، إلى ضرائب تدفع نقدا، فاستثمر اليهود في هذه السياسة أين عملوا على احتكار سوق الحبوب -خاصة من القمح والشعير- وأصبحوا يضاربون في أسعارها حتى أصبح الفلاح الجزائري لا يستطيع حتى دفع الضرائب وهذا ما جعلهم يتخلون على الزراعة أو الفلاحة بصفة عامة¹⁶.

كما تدخلت الشركات الأهلية للاحتياط في تقزيم الفلاح الجزائري، وفرض عليه طريقة معينة في العمل، من خلال تقديم القروض في المقابل تقوم الشركة بشراء الحبوب، فالشركة تفرض سعر لا يخدم الطرف الجزائري بل يخدم مصالح الرأسمالية الاستعمارية ومصالح الأقدام السوداء، وأكد أن الهدف من هذه السياسة حصر الفلاح في مجال الحبوب والسيطرة عليه، وفتح المجال للقيام لاستغلال الفلاح، فهذا الأخير هو الذي يقرر من يستفيد من القروض ومن لا يستفيد،

صعوبة مواكبة التطور التقني الذي شهدته الزراعة لدى الكولون سواء من حيث المكننة أو طرق الري ومساعدة البنوك للفلاح الأوروبي وتقديم القروض عند الحاجة.

-انتقال العديد من الأراضي الجزائرية إلى الكولون عن طريق البيع أو المصادرة واستمرت هذه السياسة إلى غاية اندلاع الحرب العالمية الأولى، وبعد نهاية الحرب بدأ الجزائريون في استرجاع الأراضي وذلك راجع إلى تحسن وضعهم المادي، خاصة مع انفتاح الهجرة الجزائرية إلى فرنسا إبان وبعد الحرب العالمية الأولى سواء كمجندين في صفوف الجيش الفرنسي أو كيد عاملة في مصانع الذخيرة والمؤونة وقرر الكثير منهم الاستقرار بفرنسا ومساعدة عائلاتهم خير من العودة إلى الجزائر⁹.

كما استغل الاستعمار الفرنسي الانتفاضات والثورات لأجل مصادرة الأراضي وتسريع وتيرة الاستيطان الفرنسي "الأوروبي" في الجزائر، أين أقام هذا الأخير العديد من القرى الاستيطانية على حساب الفلاح الجزائري الذي يتم ابعاده إلى الأماكن المعزولة أو الغير صالحة للزراعة، وتعويضهم بالفرنسيين أو الجنسيات الأوروبية الأخرى¹⁰.

لكن أخطر اجراء في مسألة مصادرة الأراضي تمثل في قانون وارني « Warner » الصادر في 26 جويلية 1873 أين ساهم هذا القانون في تفتيت أراضي العرش وتدمير الفلاحة التقليدية في الجزائر، فمن الناحية النظرية هذا القانون يهدف إلى تحديد ملكية الجزائريين مما أعطى انطباعاً للدارسين لهذا القانون أنه ينظم مجال الملكية العقارية في الجزائر، لكنه على أرض الواقع سهل عملية نقل ملكية العقار إلى المستوطنين، فبعد صدور القانون منحت السلطات الفرنسية للمستوطنين مجاناً 687.000 هكتار من الأراضي الزراعية، هذا القانون الذي كانت له تداعيات جد خطيرة على الفلاح الجزائري¹¹.

واعتبر ورناني أن الاستيطان ظاهرة تاريخية حتمية وفقاً لقانون الصراع من أجل البقاء فهو يحكم على الأجناس السفلى -حسب تعبيره-بالزوال أمام الأجناس العليا مثلما هو عليه الحال في أمريكا وأستراليا¹².

ورغم فرار العديد من الفلاحين إلى المناطق النائية والبعيدة إلا أنهم لم يسلموا من سياسة الاستعمار الفرنسي، فتم

حسب هذه الإحصائيات ارتفعت أسعار الخبز خلال خمس سنوات بـ 134% أما أسعار الزيت فارتفعت خلال نفس الفترة بـ 165% وهذا دون زيادة في أجور العمال بل بالعكس من ذلك انتشرت البطالة أكثر خاصة مع الأزمة العالمية لسنة 1929²¹، مع العلم أن أغلب الحبوب أو الكروم الجزائرية موجهة إلى السوق الفرنسية "الميتروبول" التي يتم الافتخار بها على مستوى معارض باريس المختلفة²².

انتفض مجموعة من الفلاحين الجزائريين بنواحي شرشال «Périgot ville» سنة 1936 أين ندد العمال بتدني شروط العمل رفضهم سياسة الاقصاء والتمييز وسوء المعاملة لكن السبب الرئيسي تمثل في الأجور التي كانت لا تتجاوز 2.50 فرنك ناحية شرشال، واحتج العمال في المناطق المجاورة تضامنا معهم، وكانت ردة فعل الكولون شديدة حيث تم طرد الفلاحين من مساكنهم، وتم محاصرتهم أين تم معاملتهم معاملة وحشية وتعرض العمال لإصابات خطيرة وتم سجن العديد منهم²³.

إنَّ التمييز في الأجر بين العمال لم يكن حادث عفوي اعتباطي بل كان عبارة ممارسة وشروع استعماري في الجزائر لإشعار الفلاح أو العامل الجزائري بالإهانة والذل في وطنه، هذا الفرد الجزائري الذي حرم من المدرسة التي هي أساس التكوين الاجتماعي للأفراد، كما أبعد من مراكز التكوين المني، فهي مخصصة للكولون أو لأولاد القياد الذين قدموا خدمات جليلة للاستيطان الفرنسي في الجزائر، وسهلوا على هذا الأخير - الاستعمار- عملية جمع الضرائب المختلفة، ومصادرة الأراضي، كما وقفوا مع مشروع خلق أسر نافذة في المجتمع على حساب الولاء والخنوع للاستعمار²⁴.

أدت هذه السياسة إلى شعور الفلاح الأهلي الجزائري بحالة من الاغتراب في وطنه المستعمر، وهذا بكل ما يحمله هذا المصطلح من معنى، المصطلح يشير إلى حالة نفسية حادة الانفصام عن الوسط أو العالم الخارجي أو حتى عن الذات نفسها، بسبب مختلف الإجراءات السابقة التي ذكرناها، فأصبح الجزائريون "الفلاحون" يشعرون بأنهم عائمون في فضاء سوسيوثقافي لا يشعر بالانتماء إليه²⁵، فالمدرسة فرنسية والمصنع أوروبي والأمر نفسه لمختلف مؤسسات الدولة الأخرى، هذا

وأكد أن أي فلاح حر لا يتعامل مع القياد ولا يستكين للقياد لن يحصل على القروض¹⁷.

د-التمييز في الأجر:

وهذا ما أشارت إليه جريدة الأمة حيث وجهت نداء إلى سواء المعاملة التي يتعرض لها العمال الأهالي في جميع ربوع الوطن على غرار الأربعاء ناث يرانن «Fort nationale» في نواحي جرجرة¹⁸،

وحسب المصادر فإن الفلاح الجزائري يتقاضى أجر جد زهيد خلال الحرب العالمية الأولى في نواحي عنابة حسب ما تشير إليه المصادر¹⁹:

1914	جويلية 1917	ماي 1918	جون 1918	نوفمبر 1918
2 فرنك لليوم	3 فرنك لليوم	3.40 ف	4 ف	4.60 ف

كانت أجور العمال الزراعيين الأهالي تتراوح بين 8 فرنكات في 1925 في نواحي الجزائر وتنخفض في مناطق أخرى أين يكثر العرض ويقل الطلب إلى 7 فرنكات أما عن القدرة الشرائية فهي متدهورة حسب ما تشير إليه أسعار الخبز والزيت خلال سنتي 1925 و 1930²⁰.

أسعار الخبز والزيت سنة 1925:

المنتوج	السعر بالفرنك القديم	الفرنك الفرنسي
الخبز	1.75	
الزيت	30.8	

أسعار الخبز والزيت سنة 1930:

المنتوج	السعر بالفرنك القديم	الفرنك الفرنسي
الخبز	2.35	
الزيت	50.9	

-استمرار النظام الضريبي بشقيه الفرنسي والعربي على الموالين والفلاح الجزائري بصفة عامة الذي أثقل كاهل الفلاح الأهلّي وهذا ما دفعهم إلى العزوف عن تربية المواشي.

فالجزائري (الفلاح) في هذه المرحلة يعيش على الزراعة وتربية الأنعام ولم يكن يعرف الاستثمار إلا في هذه المجالات وأصبح في عزلة خانقة فهو دون أرض ودون عمل مستقر يحفظ كرامته، فأدت هذه السياسة إلى فوصف ألبرت تريميفيس الفقر في الجزائر في نواحي "السرسو" سنة 1930 أنّ هناك فقرا في المشاتي ومجاعة... فالأولاد يذهبون إلى السهول لاستخراج الجذور أول للتلّسول.²⁸

فكانت الأزمة الاقتصادية لسنة 1929 مضاعفة على المجتمع الجزائري، أين أشارت مجلة الشهاب إلى الوضع العام للجزائريين خلال ثلاثينات القرن التاسع عشر بالوضع الجد معقد والصعب "إنّ الوضع أقرب إلى اليأس منها إلى الرجاء، وأنّ الكثير من أهل البادية والقرى الصغيرة لم يعودوا يتحصلون على ما يسد الرمق حتى صار شبح المجاعة الرهيب يهددهم كل صباح وكل مساء وطالبت المجلة أيضا في استخدام اليد العاملة الجزائرية في المشاريع المحلية بدل استخدام اليد العاملة الأجنبية من إسبانيين وطلّيان وغيرهم..."²⁹ نعم إنّ المشكل الاقتصادي والاجتماعي تجذر في الجزائر ولم يقتصر على منطقة دون أخرى أو على البدو والمستقرين بل شمل الجميع وخيم شبح المجاعة على أذهان الجزائريين.

ب- تحول الفلاح إلى أجير أو خماس³⁰:

وتم استغلال العمال الجزائريين من خلال الاستغلال البشع لهم في مختلف المجالات دون الأخذ بعين الاعتبار جملة وتفصيلا القوانين الاجتماعية المطبقة على العمال الإسبانين أو الإيطاليين أو المالطيين، وهذا بسبب الحاجة الماسة للجزائريين المسلمين إلى العمل والبحث عن لقمة العيش ومن بين الأسباب الرئيسية التي أدت إلى شيوع ظاهرة استغلال العمال وتعريضهم لحوادث قاتلة نذكر:³¹

-المبالغة بشدة في جلب اليد العاملة الأجنبية إلى الجزائر.

الشعور الذي دفع الفلاح بل المجتمع الجزائري بصفة عامة لإيجاد حلول لهذا المشكل

4. نتائج السياسة الاستعمارية على الفلاح الجزائري :

لقد أثرت السياسة الفرنسية على الفلاح الجزائري بشكل رهيب في جميع مجالات الحياة، ويعتبر المجتمع الجزائري مجتمع فلاحى بدرجة أولى، وهذا ما أدى إلى تداعيات خطيرة على الفرد أو المجتمع الجزائري خلال القرن العشرين إلى غاية اندلاع الحرب العالمية الثانية، وأصبح هذا المجتمع معرض لأبسط الأزمات خاصة خلال فترات الجفاف أو الجوائح والنكبات التي تعرفها المنطقة، دون ذكر الأمراض والإبادة التي مارسها الاستعمار ضد الإنسان والأرض الجزائرية أين يقوم المستعمر بسياسة الأرض المحروقة وقطع أشجار الزيتون والنخيل وإلى غير ذلك من الجرائم.

أ-الفقر والعوز: عان الفلاح الجزائري كغيره من طبقات المجتمع المقاومة والرافضة لسياسة الاستعمار من عنجبية الكولون الذين أبعده عن الحياة العامة، فبدأت تناقص الإنتاج لدى بعض الفلاحين الجزائريين الصامدين أمام سياسة الاستعمار الفرنسي، تراجع إنتاج القمح الصلب من 3 ملايين قنطار سنة 1919 إلى أقل من 2مليار قنطار سنة 1920²⁶، أما في ناحية الحضنة الغربية فقد أشار الباحث الجزائري بيرم كمال إلى تراجع ملحوظ في تعداد المواشي في هذه المنطقة الرعوية من الجزائر، وقد استند في هذه الدراسة على احصائيات القيادة، أين أشار إلى حقائق اجتماعية واقتصادية جد خطيرة، فحسب الإحصائيات انخفض تعداد المواشي لدى الفلاح الجزائري عكس العادة، فتربية المواشي تنمو مع مرور الزمن لكنها انخفضت في الجزائر خلال القرن الربع الأول من القرن العشرين، وقد أرجعها الباحث إلى ثلاث نقاط²⁷:

- الظروف الطبيعية التي عرفتها المنطقة مثل الجفاف وتذبذب المناخ وقلة الكلأ الذي يرجع إلى سيطرة الاستعمار على جل المساحات الموجهة للرعي من الأراضي الجماعية والغابات.

-تحول ملكية المواشي إلى المرابين الجدد من الأوروبيين واليهود الذين فرض منطقتهم على القطاع، طبعاً من ورائهم البنوك والإدارة الاستعمارية.

من الصعب علينا كباحثين تتبع جميع مراحل النضال لدى الفلاح الجزائري هذه الأخير الذي فقد كل ما يملك وجعله في موفق لا يحسد عليه لكن أشكال النضال متعددة لا يمكن حصرها في مجال محدد أو في حزب سياسي خاص وقد وجهنا أنظار القارئ إلى جانب دون آخر حسب أهمية النضال خلال الفترة المدروسة أو كذلك حسب توفر المصادر المطلعة على هذا النضال وقد لخصنا حيثيات نضال الفلاح الجزائريين في النقاط التالية:

أ- ظهور الجمعيات الفلاحية: لقد تمكن مجموعة من الفلاحين الجزائريين المسلمين من التوحد اقتداء بنظرائهم الأوروبيين من أجل فرض مطالبهم وتسهيل عملهم والوقوف في وجه الإدارة الاستعمارية في ناحية الغربي الجزائري، ومن بين هذه الجمعيات نذكر جماعة الفلاح وهي عبارة عن اتحاد من الملاكين الجزائريين المقدر عددهم بـ 18 عضواً، 8 منهم خماسين، وحددت هذه الأخيرة طريقة العمال تخرج على جميع الأطراف وكذلك كيفية تقسيم الأرباح، وقد حققت هذه الأخيرة نجاحاً هاماً في وسط الظروف الاستعمارية التي فرضها المستعمر على الفلاح الجزائري، فقد حافظت على الأراضي واستطاعت دفع الديون إلى الجهات المعنية، كما عملت هذه الأخيرة على توفير الحبوب والأسمدة ومختلف الآلات الزراعية للقادرة على التنافس مع المستثمرات الفلاحية الأوروبية.³⁴

ب- التنظيمات النقابية والسياسية: كانت الطبقة العمالية الأوروبية في الجزائر تشكل فئة ممتازة مقارنة مع نظيرتها الأهلية وهو ما لم يتم استغلاله من طرف الكونفدرالية العامة الموحدة للشغل، هذه الأخيرة التي تدعي مساندتها للبروليتاريا الأهلية وتضامنها مع الشعوب المستعمرة، وبسبب اختلاف المصالح والمشاكل بقي انخراط العمال الأهالي في النقابات الموحدة ضعيفاً باستثناء بعض القطاعات مثل السكك الحديدية وشعبة الكروم،³⁵ والأمر نفسه في الكونفدرالية العامة للشغل فقد كان انخراط الفلاحين الجزائريين نادر إن لم نقل معدوماً، لكن السبب الرئيسي يعود إلى قانون الأهالي هذا الأخير الذي حاصر حريات الجزائريين كعمال أو فلاحين أو حتى مواطنين³⁶، وهذا ما جعلنا نلاحظ تسجيلاً لانخراط بعض الأهالي الجزائريين في النقابات والوداديات المستقلة، وكان تنظيم فرع الحزب الشيوعي

-استحواد المؤسسات المالية الكبرى في الجزائر على كل النشاط الاقتصادي والفلاحي والتجاري.

-السبب الرئيسي يتمثل في عدم تطبيق القوانين والتشريعات التي تحمي العمال.

فوجد الفلاح الجزائري نفسه مجرد أجيراً أو عاملاً إن صحَّ التعبير لدى المعمر الفرنسي أو الأقدام السوداء بعد أن تحول الأجنبي إلى مالك للأرض ومسير فيها وفق قانون الامبريالية الفرنسية هذا النمط الرأسمالي الذي انتشر تقريباً في جل المستعمرات الفرنسية.³² وكان الاعتماد على الفلاح أو الأجير الجزائري كبيراً من طرف الأقدام السوداء، لكونه يد عاملة رخيصة ومردودها مرتفع بصورة عامة، وكانت شعبة الكروم توفر مناصب هامة للعمال الجزائريين، فحسب الوالي العام للجزائر كارد في رسالته إلى البرلمان الفرنسي سنة 1931، وكانت هذه الإحصائيات تعتمد على المساحات المغروسة.³³

العمالة	العمال الدائمون	العمال المؤقتون
الجزائر	25.000	125.000
وهران	35.000	180.000
قسنطينة	5.000	25.000
المجموع	65.000	330.000

إحصائيات (كادر) سنة 1931 عن العمال الدائمون والمؤقتون في مجال الكروم.

من خلال هذه الإحصائيات العامة والغير دقيقة نجد أنّ 84% من العمال مؤقتين أي موسميّين، فهم مهددين بالبطالة أو الطرد من العمل، ومراحل تشغيلهم تكون خلال عملية الجني أو نقل الكروم إلى المصانع، ونستخلص من خلال الجدول أنّ عمالة وهران أو الغرب الجزائري تستحوذ على نصيب هام من فلاحية الكروم وهذا يعود إلى عوامل مختلفة منها توفر الأراضي الخصبة المنطقة وسهولة الاستثمار في هذا القطاع.

5. النضال المطلي والنقابي للفلاح الجزائري:

في تحل الحزب الشيوعي مسؤولية تحرير المستعمرات من الاستغلال الرأسمالي، كما صرحوا بضرورة مساندة الكفاح الثوري للبلدان المستعمرة، وهو الأمر الذي يخرجهم من جميع أشكال الاستغلال الذي يتعرضون له من طرف الأوروبيين والقياد.

كلفت اللجنة التنفيذية للحزب بتأسيس نقابات ثورية وقدم لها مبلغ 500.000 فرنك للبدء بنشاطها بوهان أما عن أهدافها فتتمثلت في:

-نزع الملكية من الكولون وإعادة الاعتبار للأهالي.

-تأسيس ثلاث جمهوريات ويتم الحاقها بالكولونفدرالية السوفياتية.

لقد كلف السيد "جان شيترون" « Jean chaintron » بالدعاية وتنفيذ مخططات الحزب في شمال إفريقيا هذا الأخير الذي كان يتقن اللغة العربية أين حرر العديد من المقالات وكان يتم امضاؤها باسم عربي وأرجع المشكل الرئيسي في الجزائر إلى الإمبريالية الفرنسية⁴¹.

فقد نشط ممثل اللجنة الوطنية للحزب الشيوعي الفرنسي بالجزائر "بيار ثوري" « Pierre Thurotie » أن أخذ كلمة خلال مظاهرات الحزب ضد الإمبريالية والهيمنة الكولونيالية الفرنسية في نواحي وهران وسيدي بلعباس، ومنتقد ممثل اللجنة الوطنية هذه السياسة الفرنسية وتقاعس الحزب والمنظمات العمالية عن تحقيق مطالب الأهلي، وحسب "بيار ثوري" فإن مهمة الحزب تتمثل في الوقوف ضد البرجوازية الذين يحرضون العمال والتجار الأوروبيين ضد الأهلي، وبين لهم ضرورة الوحدة بين جميع العمال سواء من الأهلي أو الأوروبيين للوقوف ضد الهيمنة الكولونيالية وأصحاب الشركات الاقتصادية الكبرى⁴².

وهي نفس الفكرة التي رافع من أجلها موريس تورييس أمام البرلمان الفرنسي خلال مناقشة هذا الأخير مشروع متعلق بإنتاج وزراعة الخمر في الجزائر، أين طالب موريس تورييس بإلغاء قانون الأهلي في الجزائر وتقديم جميع الحقوق للعمال الجزائريين أهالي أو أوروبيين سواء ما تعلق بها بالوحي أو الأجور، كما أدرج في

في الغرب الجزائري نشط نوعا ما مقارنة بالمركزيات النقابية الفرنسية³⁷.

أما عن الأحزاب الوطنية فقد دافع النجم عن حقوق العمال الجزائريين بصفة عامة والفلاح الجزائري المسلم بصفة خاصة ونجد ذلك جليا خلال المؤتمر العادي للاستعمار ببروكسل المنعقد ما بين 10 إلى 14 فيفري 1927³⁸، حيث حضره كل من مصالي الحاج من الجزائر أين قدم المطالب التالية التي تخص الفلاح³⁹:

-مصادرة الأملاك الزراعية الكبيرة التي هي تحت أيدي الكولون والشركات.

-احترام الممتلكات المتوسطة والصغيرة التي تعود للفرنسيين.

-ارجاع الأراضي والغابات التي أخذتها الدولة الفرنسية إلى الجزائريين.

-تطبيق جميع القوانين الاجتماعية الفرنسية على الجزائر

-زيادة القروض الفلاحية إلى الفلاحين الجزائريين الصغار

لقد لخص النجم مطالب أو معاناة الفلاح الجزائري وكلها مطالب سوف تتردد في جميع المؤتمرات والجراند والعرائض التي يرفعها النجم فهو بالفعل جمعية ونقابة وحزب تهتم بجميع الجزائريين دون استثناء سواء في الميتروبول أو في الجزائر هذه المطالب -خاصة مطلب الاستقلال-الذي يكلفها الكثير ويجعلها عرضة للضغوطات الاستعمارية وسجن العديد من المناضلين⁴⁰.

كما نشطت الداعية الشيوعية ضد فرنسا الرأسمالية في الجزائر على الخصوص وزادة حدة هذه الأخيرة في صيف 1935، خاصة بعد انعقاد المؤتمر الثالث للكومنتيرين، ونشرت هذه الأخيرة في جريدتها الرسمية « L'internationale communiste » في عددها الصادر في جويلية 1935 البرنامج المحدد لها ومما جاء فيه "...فليعلم الملايين من البروليتاريا من الشرق والغرب وفي المستعمرات والمحميات إلى النظرة الثورية للشيوعية ضد الرأسمالية الإمبريالية..". وقد حضر هذا المؤتمر 14 عضوا من بينهم ممثلين في شمال إفريقيا، وقد خرجوا بمشروع عمل يتمثل

الجزائري يعتمد على وسائل تقليدية مع دفع معظم الضرائب لصالح خزينة الدولة الفرنسية.

لقد أدت السياسة التي طبقها الاستعمار الفرنسي في الجزائر في مجال الاستيطان ونزع الأراضي للفلاح الجزائري إلى خلق صرع طبقي في الجزائر حسب تعبير كارل ماركس وهذا سببه الإدارة الاستعمارية والمستوطنين الذين قاموا بتدمير الاقتصاد الجزائري التقليدي القائم على الاستغلال الجماعي للملكية العقارية وفي ممارسة الزراعة والرعي وتحول الفلاح إلى مجرد أجير أو بطل عن العمل وهذا طبعاً إلى حدوث النزاع والصراع بين الطبقتين.

7. هوامش:

برنامج الحزب إصلاحات عديدة تخص للعمال الفلاحين – الحرفيين – التجار الصغار-الشباب والمرأة الجزائرية⁴³.

6. خاتمة:

هذه السياسة الزراعية التي قامت على مبدأ الهيمنة ونزع الملكية العقارية للفلاح الجزائري المسلم قد ساهمت في تفكيك الوحدة الاجتماعية التقليدية والقضاء على التوازن الاقتصادي، فالفلاح أصبح بين عشية وضحاها معزولاً عن أرضه تحت تأثير مختلف القوانين والإجراءات من الاغتصاب العقاري إلى الضغط الديموغرافي الكولونيالي والانتقال من اقتصاد بدائي مغاربي إلى اقتصاد السوق الذي يخدم أغراض الأقدام السوداء في الجزائر ودعم الاقتصاد الفرنسي بطريقة أو أخرى.

فانحصرت الزراعة الجزائرية على الزراعة المعاشية المتواجدة على سفوح الجبال والمنحدرات بعد أن كانت في السابق قائمة في السهول والأحواض الغنية التي أصبحت في يد ملاكها الجدد من المستوطنين في جميع المحاصيل الزراعية، وبقي الفلاح

⁷ - M. Faré: La famine en Algérie et le discours officiels erreurs et contradictions, Deuxième édition, challamel editeur, Paris 1868, p25.

⁸ -Antoine Redier : La colonisation par l'entreprise agricole, Imprimerie Tolmer, Paris, 1884, p13.

⁹ -Mahfoud Kaddache: Histoire du nationalisme algérienne, T2, SNED, Alger, 1980, p15-16.

¹⁰ -Ernest Mercier: Histoire de Constantine, Jmarle et F.Biron imprimeurs, Constantine, 1903, p516.

¹¹ -عبد الملك خلف التميمي: أضواء على المغرب العربي رؤية عربية مشرقية، دار البصائر، الجزائر، ص 25.

¹² -سعد طاعة: "دور الاحتلال الاستيطاني في سياسة فرنسا في الجزائر وفي تنظيم المستعمرة"، مجلة المصادر، العدد 17، الجزائر، 2008، ص 106.

¹³ -جمال قنان: "مشاغل المجتمع الجزائري من خلال الصحافة 1882-1914"، مجلة المصادر، العدد 9، مارس 2004، ص 42.

¹⁴ -جمال قنان: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، المرجع السابق، ص 130.

¹⁵ -Gouvernement général de l'Algérie, délégation financières

Algériennes, Session ordinaire de mai-juin 1936, N°4,

Délégation indigène, Imprimerie Solal, Alger.

¹ -ناصر الدين سعيدوني: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر-تونس-طرابلس الغرب) من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري (من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر)، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، العدد 31، جامعة الكويت، 2010، ص ص 29-30.

² - Bourdieu Pierre et Autres: Travail et travailleurs en Algérie, édition Mouton, Paris, 1963, p54.

³ -عدي الهواري: الاستعمار الفرنسي للجزائر سياسة التفكيك الاقتصادية والاجتماعي 1830-1960، تر جوزيف عبد الله، ط1، دار الحدائق للطبع، بيروت، ص 136.

⁴ -Françoise Renaudot: L'histoire des Français en Algérie 1830-1962, éditeur Robert Laffont, 1979, Paris, p88.

⁵ -خنوف علي: مقاومة سكان منطقة جيجل للاستعمار الفرنسي خلال القرن 19، ط1، منشورات الأنيس، الجزائر، 2012، ص ص 206-207.

⁶ -جمال قنان: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994، ص 129.

- ³³ - عبد الرحمن بن براهيم بن العقون: الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصرة الفترة الأولى 1920-1936، ج 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 360.
- ³⁴ -بختاوي خديجة: "استرجاع الجزائريين للملكية العقارية من خلال وثائق أرشيفية"، أعمال الملتقى الوطني الأول حول العقار في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي 1830-1962، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر 2007، ص ص 168-169.
- ³⁵ -René Gallissot: Syndicalisme ouvrier et question nationale en Algérie, les position de la C.G.T.U dans les années 1930-1935, Bulletin trimestriel de l'institut Française d'histoire sociale, N°66, Mars 1969, les édition ouvriers, France, p4.
- ³⁶ - La révolution prolétarienne: Revue bimensuelle syndicaliste révolutionnaire, N°227, 25 juillet 1936, paris, p6-214.
- ³⁷ - Thomas-Adrian Schweizer: Le Parti communiste Française le Comintern et l'Algérie dans les années 1930, Le mouvement social, Bulletin trimestriel de l'institut Français d'histoire sociale, Janvier-Mars 1972, N°78, Les éditions Ouvrières, Paris, p132.
- ³⁸ -عبد الرحمن بن براهيم بن العقون: الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصرة الفترة الأولى 1920-1936، ج 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 128.
- ³⁹ -Jacques Simon: Messali Hadj par les textes, éditions ENAG, Alger, 2010, p16.
- ⁴⁰ -Mohamed Guenaneche : Le mouvement d'indépendance en Algérie entre les deux guerres (1919-1939), Office des publications universitaires, Alger, 2010, p35.
- ⁴¹ -La vérité sur la situation économique et politique en Afrique du nord, Numéro spécial, publication bimensuelle 15 septembre 1937, Paris, pp 31-32.
- ⁴² - Thomas-Adrian Schweizer: op cit, p132.
- ⁴³ -Bulletin coloniale, novembre 1934, p198.
- ¹⁶ -جيلالي صاري: "الكارثة الديموغرافية في الجزائر (1867-1868)، مجلة الثقافة، العدد 70، يوليو أغسطس، الجزائر 1983، ص ص 117-118.
- ¹⁷ -كريم ولد النبية: الشركات الأهلية للاحتياط في الجزائر 1893-1962، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، العدد 16، جوان 2013، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، ص ص 79-80.
- ¹⁸ -El Ouma: Organe national de défense des intérêt des musulmans Algériens, Marocains et Tunisiens, N°28, 12/1934.
- ¹⁹ - Mahfoud Kaddache: Histoire du nationalisme algérienne, T1, SNED, Alger, 1980, p20.
- ²⁰ -Lucienne Favre: Dans la casbah, édition Bernard Grassert, Paris, 1937, pp 88-89.
- ²¹ - Alger Socialiste: Organe officiel de la fédération Socialiste d'Alger, N°572, 04/12/1931.
- ²² -Les annales coloniales, 18/06/1931.
- ²³ -La révolution prolétarienne: Revue bimensuelle syndicaliste révolutionnaire, N°227, 25 juillet 1936, paris, 5-213.
- ²⁴ -Nora Benallègue-chaoui : Algérie mouvement ouvrier et question nationale 1919-1954, édition office des publication universitaires, Alger, 2010, p63.
- ²⁵ -نديم البيطار: المفقون والثورة (الأنثيليجانسيا كظاهرة تاريخية)، ط 2، بيسان للنشر، بيروت، 2001، ص 99.
- ²⁶ -A.Nouschi: La naissance du nationalisme algériens, édition de Minuit, Paris, 1963, p40.
- ²⁷ -يبرم كمال: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الحضنة الغربية فترة الاحتلال الفرنسي (1840-1954)، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري، قسنطينة، 2011، ص ص 322-323.
- ²⁸ -Albert Truphemus : L'hotel du Sersou, Alger, édition soubiran, 1930, p263.
- ²⁹ -مجلة الشباب: لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أغسطس 1932، ص 429.
- ³⁰ - أطلق عليه هذا المصطلح لأنه يأخذ الخمس (5/1) من المنتج وهي طريقة عمل ناجعة في الجزائر قبيل الاستعمار الفرنسي أين يوظف الخماس كيد عاملة في الزراعة وجني المحصول والسهر عليه، أنظر. Van Vollenhoven Joost : Essai sur le Fellah algérien, Thèse pour doctorant, Université de Paris, Faculté de droit, Paris, 1903, p178.
- ³¹ -L'ouvrier Algérien: Organe hebdomadaire de revendications politiques ouvrières, N°5, Dimanche 8 Avril 1906.
- ³² -بوضرياسة بوعزة: سياسة فرنسا البربرية في الجزائر 1830-1980 وانعكاساتها على المغرب العربي، دار الحكمة، الجزائر، 2010، ص 108.